أثر الحديث النبوى الشريف فى اللغة العربية

الدكتورمحمد بشير *

١- مدخل:

يعرض هذا البحث للأثار اللغوية التى تركها الحديث النبوى الشريف فى اللغة العربية، وتتنوع هذه الآثار وتتعدد، فبعضها عامّ يتمثل فى المحافظة على بقاء اللغة العربية حية مستعملة إلى يوم القيامة، وجعلها لغة علوم وحضارة، وجعلها لغة عالمية وأخيرا جعلها لغة مقدسة تحمل القرآن الكريم وتشرحه بالحديث النبوى، وتعبر عن مفاهيم الإسلام.

أما الآثار الخاصة مما يتعلق بصلب العربية ،آو"نظامها" اللغوى فسوف يعرض لهاهذا البحث بالتفصيل متناولاً أثر الحديث النبوى فى المفردات، وأثره فى التراكيب، وأثره فى الأساليب، وذلك على النحو التالى:-

٢- مفهوم الحديث النبوى:

وفى البداية لابد لنا من تحديد مفهوم كلمة(الحديث) لتتضح معالم البحث، ويعرف الحديث النبوى بأنه: (هو قول النبى صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره ووصفه)، والذى يعنينا هنا هو قوله عليه السلام. ومماالاشك فيه أنه نص أدبى فى الذروة من البيان، ولايرتفع فوقه فى مجال الأدب الرفيع إلا كتاب الله بلاغة وفصاحة وروعة،[1] شهد على ذلك أعلام الأدباء، ويأتى فى قمتهم الجاحظ الذىوصف حديث الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا:"هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثرت معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزه عن التكلف، واستعمل المبسوط فى موضع البسط، والمقصور فى موضع القصر، وهجر الغريب الوحشى، ورغب عن الهجين السوقى،

---

* الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد

1- التصوير الفنى فى الحديث النبوى ص:٢٠ ــ ٢١ الدكتورمحمد بن لطفى الصباغ الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م المكتب الإسلامى بيروت

فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، و لم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة، وشيّد بالتاييد، ويّسر بالتوفيق، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحب، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام. لم تسقط له كلمة، ولازلت به قدم، ولابارت له حجة، و لم يقم له خصم، ولا أفهمه خطيب، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلم القصار، ولايحتج إلابالصدق، ولايطلب الفلج إلابالحق، ولايستعين بالخلابة، و لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا، ولاأقصد لفظا، ولاأعدل وزنا، ولاأجمل مذهبا، ولاأكرم مطلبا، ولاأحسن موقعا، ولاأسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولاأبين فى فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم"[١]

ثم قال:"ولعل بعض من يتسع فى العلم و لم يعرف مقاديرالكلام يظن أنّا تكلفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده ولايبلغه قدره كلّا والذى حرم التزيد على العلماء، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذابين عند الفقهاء، ولا يظن هذا إلا من ضلّ سعيه" [٢]

ويرى أبوحيان أن سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم هى الغاية فى البيان، والنهاية فى البرهان، والمفرغ عند الخصام، والقدوة لجميع الأنام.[٣]

ويذكر الدكتورمحمد الصباغ أسباب ذلك فيقول: وقد كان للنشأة اللغوية الصافية التى نشأها صلى الله عليه وسلم تاثير فى فصاحته فهو من هاشم من قريش، وأخواله من بنى زهرة، واسترضع فى بنى سعد بن بكر.

وأضاف إلى ذلك قائلا:و خالط فى حياته بطون قريش والأنصار، فكانت هذه النشأة مرانا حيا بأحسن الأساليب، وفصح اللهجات فى العرب قاطبة، هذه النشأة اللغوية النقية الخالصة صقلت موهبة الرسول الفذة التى لانظير لها فى المواهب

1- البيان و التبيين، ص:١٧/٢ .عمروبن بحر الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة بالقاهرة ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م

- وانظر: التصوير الفنى فى الحديث النبوى، ص:٢٠ ـ ٢١

2- البيان و التبيين، ص:١٨/٢

3- البصائر و الذخائر، ص:١/ ٨ ، على بن محمد أبو حيان التوحيدى ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر بمصر، ١٣٧٣هـ-١٩٥٣م -التصوير الفنى فى الحديث النبوى،ص:٢١

البشرية، وتمثلت هذه الموهبة في فطرة صافية، وذهن جوال، وبصر نفاذ، ونفس مجتمعة فاضلة، وإحساس دقيق مرهف، وبديهة حاضرة. (١)

٣- مفهوم اللغة العربية:

نهتم بتحديد مفهوم اللغةالعربيةهنا؛لأنهاالمجال التطبيقي لفكرة البحث،حتى نستطيع التعرف على أثر الحديث النبوي فيها.

اللغة العربية هي اللغة التي نشأت وازدهرت في شبه الجزيرة، وهي التي نزل بهاالقرآن الكريم، واستعملهاالرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون من صحابته، ومازالت تستعمل حتى الآن .

وقد اهتم العرب بلغتهم منذ العصر الجاهلي، وازداد هذا الاهتمام بشكل واضح مع ظهور الإسلام وقيام الفتوحات الإسلامية، لأن اللغة العربية أصبحت لغة القرآن الكريم والحديث الشريف، ولغة الدين بصفة عامة، لذلك بدأ اهتمام العلماء المسلمين يتجه نحو حفظ التراث اللغوي والدفاع عنه.

واللغة العربية لغة متسعة مستوعبة أكثر من معظم لغات الأرض، مرنة بما لها من خصائص الاشتقاق والنحت والتعريب.

ونشأ التنافس بين العرب في إحكام اللغة والمفاخرة بالبيان، وساعدهم على ذلك مواقعهم وأيامهم وأسواقهم التي يقصدونها للتسوق والبياعات والمنافرة والحكومة وغيرها مما هو من طبيعة المخالطة.

أحكمت اللغة وتم تهذيبها على يد قريش؛ إذ كانوا يعيشون في مكة التي كان يأتي إليها تقريبا جميع القبائل لعبادة أصنامهم التي وضعوها في مكة، وكانت تلك القبائل بطبائعها متباينة اللهجات، مختلفة الأقيسة المنطقية المودعة في غرائزها، فكان قريش يسمعون لغاتهم ويأخذون ما استحسنوه فيها فيديرون به ألسنتهم ويحيرون على قياسه، ولو كانوا بادين كسائر القبائل ما فعلوه.

٤- فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم:

مما لا شك فيه أن فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت توقيفا من الله وتوفيقا؛ إذ ابتعثه للعرب، وهم قوم يقادون من ألسنهم، ولهم المقامات المشهورة في

1- التصوير الفني في الحديث النبوي ص:٢١

البيان والفصاحة، ثم هم مختلفون في ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم في اللغات، وعلى اختلاف مواطنهم، فمنهم الفصح والأفصح، ومنهم الجافي والمضطرب، ومنهم ذو اللوثة والخالص في منطقه، إلى ما كان من اشتراك اللغات وانفرادها بينهم، وتخصص بعض القبائل بأوضاع وصيغ مقصورة عليهم لا يساهم فيها غيرهم من العرب، إلا من خالطهم أو دنا منهم دنو المأخذ.

فكان صلى الله عليه وسلم يعلم كل ذلك على حقه، كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها، وتبادر بحقائقها، فيخاطب كل قوم بلهجتهم وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابا وأسدهم لفظا وأبينهم عبارة، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب[1].

ولاغرو كذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان قرشيا، ولغة قريش هي أفصح اللغات وألينها، بالمنزلة التي لا يدافع عليها، ولا ينافس فيها، وكان صلى الله عليه وسلم من ذلك في أقصى النهاية، وإنما فضلهم بقوة الفطرة واستمرارها وتمكنها مع صفاء الحس، ونفاذ البصيرة واستقامة الأمر كله بحيث يُصَرِّفُ اللغة تصريفا، ويديرها على أوضاع، ويشقق منها في أساليبها ومفرداتها ما لا يكون لهم إلا القليل منه؛ لأن القوة على الوضع والكفاية في تشقيق اللغة، وتصاريف الكلام، لا تكون في أهل الفطرة مزوالة، ومعاناة ولا بعد نظر فيها وارتياض لها، إنما هي إلهام المقدار تهيئ له الفطرة القوية، وتعين عليه النفس المجتمعة والذهن الحاد والبصر النفاذ، فعلى حسب ما يكون للعربي في هذه المعاني، تكون كفايته، ومقدار تسديده في باب الوضع.

وليس في العرب قاطبة من جمع الله فيه هذه الصفات، وأعطاه الخالص منها وخصه بجملتها، وأسس له مآخذها، وأخلص له أسبابها كالنبي صلى الله عليه وسلم، فهو اصطنعه لوحيه، ونصبه لبيانه، وخصه بكتابه، واصطفاه لرسالته، وماذا عسى أن يكون وراء ذلك فى باب الإلهام وجمام الطبيعة وصفاء الحاسة، وثقوب واجتماع النفس وقوة الفطرة و وثاقة الأمر كله بعضه إلى بعض .[2]

1- إعجاز القرآن و البلاغة النبوية ص: ٢٨٣-د/ مصطفى صادق الرافعي، الطبعة التاسعة ١٣٩٣-١٩٧٣ الناشر دار الكتاب العربى بيروت لبنان

2- تاريخ آداب العرب، ص:١٨٨/٢ ، مصطفى صادق الرافعي، الناشر دار الكتاب العربى بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

ونضيف إلى ذلك أن أكبر الشأن في اكتساب المنطق واللغة هو المخالطة والطبيعة، ثم ما يكون من سمو الفطرة وقوتها، فإنما هذه سبيله.

وبصدد ذلك إذا أردنا أن نرى سيرة نبينا النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم نجد أنه نشأ وتقلب في أفصح القبائل وأخلصها منطقا، وأعذبها بيانا، فكان مولده في بني هاشم، وأخواله في بني زهرة، ورضاعه في سعد بن بكر ومنشؤه في قريش، ومتزوجه في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو، وهم الأوس والخزرج من الأنصار، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة، ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش" ونشأت في بني سعد " وفي رواية "واسترضت في بني سعد ". (١)

ومن تهيأت له كل هذه الوسائل — الوهبية والاكتسابية — في تعلم اللغة له حق أن يفتخر ويمدح نفسه ويقول بصدد ذلك : "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش".

وشهد بفصاحة الرسول أبو بكر، وأقر له بذلك حيث قال له ذات يوم: لقد طفت بالعرب وسمعت فصحاءهم فماسمعت أفصح منك، فمن أدبك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "أدبني ربي فأحسن تأديبي" (٢)

وهناك حديث يبلور هذا الموضوع ويوضحه، وورد فيه: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم جالس مع أصحابه إذ نشأت سحابة، فقالوا: يا رسول الله هذه سحابة، فقال: " كيف ترون قواعدها" قالوا: ما أحسنها وأشد تمكنها قال: "وكيف ترون رحاها" قالوا: ما أحسنها وأشدّ استدارتها! قال: "وكيف ترون

1- التفسير الكبير للرازي ص:١٣٥٧هـ— الطبعة الأولى ١٩٣٨م، طبع بالمطبعة البهية المصرية
- تفسير البحر المحيط، ص:٧٩/٥ ـــ محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م الطبعة : الأولى عدد الأجزاء / ٨
تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض شارك في التحقيق(١ د. زكريا عبد المجيد النوقي ٢) د.أحمد النجولي الجمل
— إعجاز القرآن و البلاغة النبوية ص:٢٨٥-٢٨٦ .

2- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ١٤/١. عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي —مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

بواسقها" قالوا: ما أحسنها وأشد استقامتها! قال: "وكيف ترون برقها أوميضا أم خفيا أم يشق شقا" قالوا: بل يشق شقا، قال : "وكيف جوها" قالوا: ما أحسنه وأشد سواده! قال عليه السلام "الحيا" قالوا: يا رسول الله ما رأينا الذي هو منك أفصح، قال: "وما يمنعني من ذلك فإنما أنزل القرآن بلساني، لسان عربي مبين" [1]

ولوأنهم اطلعوا منه على غير ذلك، أوترامى كلامه إلى شيء من أضداد هذه المعاني، لقد كانوا أطالوا في ردّ فصاحته وعرّضوا، ولكان ذلك مأثورا عنهم دائرا على ألسنتهم، مستفيضا في مجالسهم ومناقلاتهم، ثم لردوا عليه القرآن و لم يستطع أن يقوم لهم في تلاوته وتبيينه، ثم لكان فيهم من يعيب عليه في مجلس حديثه ومحاضرة أصحابه، أو ينتقص أمره ويغض من شأنه، فإن القوم خُلَّصٌ لا يستجيبون إلا لأفصحهم لسانا وأبينهم بيانا وخاصة في أول النبوة وحدثان العهد بالرسالة فلما لم يعرضه شيء من ذلك، وهو لم يخرج من بين أظهرهم، ولا جلا عن أرضهم، ورأينا هذا الأمر قد استمر على سنته واطرد إلى غايته، وقام عليه الشاهد القاطع من أخبارهم، كما ستعرفه علمنا قطعا وضرورة أنه صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب وافيا بغيره، كافيا من سواه، وأنه في ذلك آية من آيات الله لأولئك القوم، قال تعالى : " **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** "(البقرة:١٨٧)

٥- أثر الحديث في مفردات العربية:

وبناء على ما سلف ذكره جعل علماء اللغة لغة النبي صلى الله عليه وسلم موضع اهتمام، فأخذوا يدرسونها فاللغوي بدأ يستمد مادته من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، ويشرحها،فكثر التأليف في هذا الموضوع- الغريب في اللغة- منذ بداية عهد التدوين في سياق تفسير القرآن والحديث، لأن اللغة العربية حفلت بالكثير من الكلمات الغريبة التي استغلق فهمها حتى على فصحاء العرب، وكان الصحابة يتفاوتون مقدرة في ذلك.

وكان الصحابي عبد الله بن عباس أول من تقدم لتفسيرغريب القرآن الكريم مشروحاً بكلام العرب وإليه ينسب أول كتاب في غريب القرآن، وصحبت عملية

---

[1]- الأمالي لأبي على القالي ٩،٨/١، المطبعة الأميرية ،(مصر) تصويربيروت بالأوفست- الفائق في غريب الحديث: ٢١٢/٣، الزمخشري ، تحقيق على البجاوى و أبى الفضل إبراهيم —طبع عيسى البابى الحلبى بمصر —دون تاريخ —.إعجاز القرآن و البلاغة النبوية ص:٣٠١ .

تفسير غريب القرآن الكريم عملية الكشف عن غريب الحديث التي انطلقت بدورها أيضا من الحاجة إلى معرفة معاني ألفاظ غريبة، وإن كان التأليف في هذا الباب تأخر قليلا عن تفسير القرآن، وهذا أمر طبيعي لاغرابة فيه.

ومن أهم وأقدم كتب غريب الحديث التي وصلتنا كتاب "غريب الحديث" لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفي سنة ٢٢٤هـ الذي سار فيه على طريقة كتب المسانيد، فأفرد أحاديث الرسول، وأحاديث كل رجل من الصحابة والتابعين على حدة، وأورد الأحاديث في كل مسند بدون أي ترتيب، بذكر الحديث، ثم سنده، ثم يشرح لفظه المعقود له الباب، ثم ينتقل إلى حديث آخر.

وراعى في شرح الغريب تفسير اللفظ، وإيراد بعض المشتقات القليلة مثل الفعل والمصدر، والاستشهاد على المعنى من القرآن والشعر، وبعض الأحاديث الأخرى وقد أعجب الناس به منذ ظهوره من لغويين وغيرهم. (١)

وعندما ظهرت المعاجم بمعناها الاصطلاحي وجدنا أنها استشهدت بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم في مواضع كثيرة، ومن كلمة إلى كلمة لتؤيد رأيها وتقوى موقفها دون أن يبدي أصحابها إنكارهم نحو ذلك.

وإذا نظرنا إلى كتاب "العين" أول معجم لغوي في تاريخ العربية للخليل بن أحمد الفراهيدي، نجده يستشهد بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن استشهاده في لفظة "العداد" قوله: وفي الحديث: مازالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان قطع أبهري أي تراجعني، ويعاودني ألم سمها في أوقات معلومة . (٢)

1- اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية، ص: ٤٥- ٤٦ د/ عبد اللطيف الصوفي – دمشق دار طلاس ١٩٨٦ الطبعة الأولى- المعجم العربي، ص:٢/ ٥٢. د حسين نصار،دار مصر للطباعة ٣٧شارع كامل صدق ، ١٤٠٨-١٩٨٨

2- العين ١/٨٠.الخليل بن أحمد الفراهيدي(١٠٠-١٧٥):تحقيق الدكتور مهدى المخزومى، الدكتور إبراهيم السامرائى، الطبعة الأولى مصورة فى إيران-تاريخ النشر: ١٤٠٥ من منشورات دار الهجرة.ايران قم

- النهاية في غريب الحديث والأثر ١ / ١٨. لإبن الأثير: تحقيق طاهر أحمد الزاوى -محمود الطناحي

الناشرالمكتبةالعلميةسنةالنشر١٣٩٩هـ-١٩٧٩م مكان النشر بيروت وتعداد الأجزاء ٥.

ومن استشهاداته بالحديث قوله في مادة "عقّ" العرب تقول: عق الرجل عن ابنه ويعق عقا، إذا حلق عقيقته، وذبح عنه شاة، وتسمي الشاة التي تذبح لذلك عقيقة، وفي الحديث : كل امرئ مرتهن بعقيقته، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عق عن الحسن والحسين فأعطى بزنة شعرهما ورقا" [1]

واستشهد بالحديث أيضا الأزهري الذي اهتم بتهذيب اللغة، وقال في هذا الشأن: "وقد سميت كتابي هذا تهذيب اللغة، لأني قصدت بما جمعت فيه نفي ما أدخل في لغات العرب من الألفاظ التي أزالها الأغبياء عن صيغها وغيَّرها الغتم عن سنتها، فهذبت ما جمعت في كتابي من التصحيف والخطأ بقدر علمي، ولم أحرص على تطويل الكتاب بالحشو الذي لم أعرف أصله، والغريب الذي لم يسنده الثقات إلى العرب [2]

ويضيف إلى ذلك قائلا: " ولم أودع كتابي هذا من كلام العرب إلا ما صح لي سماعا منهم، أو رواية عن ثقة، أو حكاية عن خط ذي معرفة ثاقبة اقترنت إليها معرفتي. [3]

وبدا لنا من حديث الأزهري أنه لا يهتم بالكلام العادي ولا بكلام عامة الناس بل هو ينتقي الجواهر من الكلام، ويتمثل به ويأتي في قمة هذه الجواهر كلام الله وكلام حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، وفي هذا الصدد يقول مستشهدا به على معنى لفظة "عضه" روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ألا أنبئكم ما العضة" ؟ قالوا: بلى يا رسول الله . قال: "هي النميمة"[4]

وابن سيده من أشهر علماء الأندلس في اللغة صاحب معجم "المحكم والمحيط الأعظم" — أكبر معجم وضعه علماء الأندلس في اللغة — ربط فيه اللغة بالقرآن والحديث نظرا لانشغاله في علوم الدين الإسلامي.

1- كتاب العين،ص: ١/ ٧٠ . اللغة ومعاجمها د/ عبد اللطيف الصوفي ص: ٩٤.

2- تهذيب اللغة ،المقدمة ١/ ٥٤ .أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى(٢٨٢-٣٧٠)، الطبعة الأولى ١٤٢١-٢٠٠١ ،دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان

3- تهذيب اللغة، المقدمة ١/٥٤.

4- تهذيب اللغة ١/ ٩٤ — شرح النووى على صحيح مسلم ، باب تحريم النميمة ٨/٣٨٣. الطبعة الأولى ١٤٢٥-٢٠٠٤ مكتبة الرشد ناشرون- المملكة العربية السعودية- الرياض.

وضع ابن سيده خطة اعتمدها في تأليف كتابه هذا وقال: إن كتابنا هذا مشفوع المثل بالمثل، مقترن الشكل بالشكل، لا يفصل بينهما غريب .. هذا إلى ما تحلى به من التهذيب والتقريب... [1]

ويقول كذلك : "وأما ما ضمناه كتابنا هذا من كتب اللغة فمصنف أبي عبيد، والاصلاح لابن السكيت- والجمهرة لابن دريد- وتفاسير القرآن وشروح الحديث، والكتاب الموسوم بالعين.. وجميع ما اشتمل عليه كتاب سيبويه من اللغة المعللة العجيبة الملخصة الغريبة، المؤثرة لفضلها، والمستراد لمثلها... وأما ما نشرت عليه من كتب النحويين المتأخرين المتضمنة لتعليل اللغة فكتب أبي علي الفارسي: الحلبيات والبغداديات والأهوازيات. وكتب أبي الحسن الرماني كالجامع والأغراض، وكتب أبي الفتح عثمان بن جني: [2]

عبارات ابن سيده تدل على أنه كان مولعا باللغة والجمع من عيون الكتب ويأتي في قمتها القرآن الكريم وكتب الحديث وكتب اللغة والمعاجم، واقتباسه من الحديث مثل قوله في لفظة "العب" وفي الحديث: "اشربوا الماء صبًّا، ولا تعبوه عبّا، فإن الكباد من العب"

ومن أهم المعجمات القديمة في اللغة العربية، جمهرة اللغة لابن دريد، وسماه بذلك لأنه اختار له الجمهور من كلام العرب، وأرجأ الحوشي والمستنكر، والغريب النادر وهو كذلك يشتهد بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويقول في لفظة "ثرثار" وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألا أخبركم بأبغضكم إليّ الثرثارون، المتفيهقون" ورجل ثرثار كثير الكلام. [3]

وأدلى بدلوه الجوهري في الاستشهاد بالحديث في الجانب المعجمي في كتابه الذى سماه "الصحاح" وهو معجم رائع نال إعجاب العلماء والباحثين لأنه اهتم بما

1- المحكم و المحيط الأعظم ،المقدمة ١/٣٧. –ابن سيده(ت٤٥٨) تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوى ، الطبعة الأولى ١٤٢١-٢٠٠٠ دار الكتب العلمية –بيروت -لبنان

2- المحكم و المحيط الأعظم المقدمة ١/٤٧.

3- النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٢٠٩ لابن الأثير: جمهرة اللغة لابن دريد (ت٣٢١) ص:١/٦٥-الطبعةالأولى ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م منشورات محمد على بيضون ،دار الكتاب العلمية ،بيروت لبنان .

هو صحيح، والمؤلف بنفسه. يقول بصدد ذلك : "أودعت كتابي هذا ما صحّ عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها، وجعل علم الدين والدنيا منوطا بها.[١]

وقد استشهد الجوهري في شرح الألفاظ بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وبالشعر الرفيع والمأثور من أقوال العرب، وجمع الأقوال المختلفة حول المفردات في نسق واحد دون إطالة.

ومن استشهاداته بالحديث النبوي استشهاده على معنى لفظة "كفر – بفتح الكاف وسكون الفاء" فقال: وفي الحديث : "ألا تخرجكم الروم منها كفراً كفراً"؟ قرية من الشام.[٢]

وإذا بحثنا عن الاستشهاد بالحديث في أغزر المعاجم مادة حتى إنه يتجاوز حدود المعجم اللغوي ليصبح أشبه بموسوعة أدبية لغوية عامة لما تضمنه من معارف شتى في فروع الثقافة العربية، وهو معجم لسان العرب الذى استفادمؤلفه – ابن منظور–عند وضع كتابه من كتب اللغة غزيرة المادة، واستقى منها حسب حاجته، وفوق ذلك أنه اعتمد على كتابين هامين هما "حواشي ابن برّي"، و"النهاية في غريب الحديث لابن الأثير"[٣]

والأخير منها أكبر معجم في غريب الحديث وبهذا نجد معجمه في طليعة المعاجم التي تستشهد بالحديث الشريف، ومن ثم جاء استشهاده بالحديث كما يلي:

١. استشهاده بالحديث على تفسير المعنى.
٢. استشهاده بالحديث على المعاني المجازية.
٣. استطراداته في مسائل شتى.

وعند الاستشهاد بالحديث على تفسير الألفاظ، قد يورد الحديث كاملا، وقد يذكر جزءاً منه، وقد يكرر موضع الاستشهاد. وأمثلة ذلك كما يلي:

1- معجم الصحاح للجوهري ٣٣/١، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، مصر دار الكتاب العربي ١٩٥٦م.

2- معجم الصحاح للجوهري ٨٠٧/٢.

3- اللغة ومعاجمها الدكتور عبد اللطيف الصوفي ص: ١٨٤ – الدكتور حسين نصار ، المعجم العربي نشأته وتطوره ٦٩٠/٢ و ٥٤٤/٢

يقول ابن منظور في شرح مادة "الفزع" [1]

الفزع : الفرق والذعر من الشيء وهو في الأصل مصدر. فزع منه، وفزع فزعا وفَزعا، فهو فزع بفتح الفاء وكسر الزاي- إليه لجأ، فهو مفزع لمن فزع إليه أي ملجأ لمن التجأ إليه.

وفلان مفزع الناس، وامرة مفزع، وهم مفزع: معناه إذا دهمنا أمرا فزعنا اليه، أي لجأنا إليه واستغثنا به معناه : أي الحؤوا إليها، واستعينوا بها على دفع الأمر الحادث.

وفي حديث الكسوف "فافزعو إلى الصلاة" [2]

والفزع أيضا الإغاثة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، للأنصار: " إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع" [3] أي تكثرون عند الإغاثة، وقد يكون التقدير أيضا عند فزع الناس إليكم لتغيثوهم.

واستشهد لمادة "الملأ" قائلا: الملأ .[4] الرؤساء وأشراف القوم ووجوههم، ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يرجع إلى قولهم. ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا من الأنصار وقد رجعوا من غزوة بدر يقول: ما قتلنا إلا عجائز صلعا. فقال عليه الصلاة والسلام : "أولئك الملأ من قريش لو حضرت فعالهم لاحتقرت فعلك . [5]

وعزز ابن منظور لفظة "صدأ" مستشهدا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: (صدأ) والصدأ: الطبع والدنس يركب الحديد، وصدأ الحديد: وسخه. وصدئ الحديد ونحوه يصدأ صدأ، وهو أصدأ: علاه الطبع وهو الوسخ، وفي

1- لسان العرب لابن منظور، ص:٨/٢٩٩_ منشورات محمد على بيضون ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان.

2- النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٤٤٤

3- الفائق في غريب الحديث للزمخشري ٣/١١٥.

- لسان العرب، ص:٨/٣٠٠

4- لسان العرب: ١/١٩١

5- النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/٣٥١.

- الفائق في غريب الحديث للزمخشري ٣/١١٥. - لسان العرب ١/١٩١

الحديث: "إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، [1] فقيل يا رسول الله وما جلاؤها؟ فقال: "تلاوة القرآن وذكر الموت" [2]

وهو أن يركبها الرين مباشرة المعاصي والأثام فيذهب بجلائها كما يعلو الصدأ وجه المرآة والسيف ونحوهما.

ويعزز شرح مادة "الفطرة" بقول الرسول صلى الله عليه وسلم ويقول: (الفطرة)

والفطرة ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به، والخلقة التي يخلق عليها المولود في بطن أمه، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة" [3]

- نص الحديث: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهمة" [4]

يعني الخلقة التي فطر عليها في الرحم من سعادة أو شقاوة؟ فإذا ولده يهوديان هوداه في حكم الدين أو نصرانيان نصراه في الحكم أو مجوسيان مجساه في الحكم.

ننتهى من كل ما سبق إلى أن الحديث النبوى الشريف كان له أثركبير فى مفردات العربية من عدة جوانب :

أولها : أنه حافظ على كثير من هذه المفردات ومنعها من النسيان والضياع.

وثانيها :أنه شرح معانى كثير منها ،أو تسبب فى شرح كثيرمنها.

وثالثها :أنه جعل العلماء يؤلفون المعاجم اللغوية التى حفظت لنا كل مفردات اللغة، وأبقت عليها مستعملة حتى يومنا هذا .

1- لسان العرب: ١/١٣٣

2- إحياء علوم الدين ١/٢٤٥. محمد بن محمد الغزالي-مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٣٥٨

3- لسان العرب: ٥/٦٦

4- فتح الباري بشرح البخاري ٣/٤٩١

- ابن حجر: مطبعة مصطفى البلي الحلبي بمصر ١٣٧٨-١٩٥٩م.

٦- أثر الحديث فى تراكيب العربية ونحوها:

نعرض فى هذا الجزء من البحث لأثر الحديث فى تراكيب العربية من ناحية تثبيت تراكيب عربية وحفظها من الزوال ومن ناحية أنه صحح استعمالات ظن بعضهم أنها غير صحيحة ومن حيث إنه نبه على اللحن والخطأ فى استعمال بعض التراكيب لما خاف أهل اللغة العربية على سلامتها بعد أن اختلط أهلها بالأعاجم وسكنوا بلادهم وعايشوهم، فشعر أولو البصرمنهم بأن الأمر سيحيل إلى الفساد في اللغة، وضياع العصبية من جهة، واللحن يعتبر الباعث الأول على تدوين اللغة وعلى استنباط قواعد النحو وتصنيفها.

و بصدده قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل"(١)

ونقل السيوطي رواية في المزهر قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيها: "أنا من قريش ونشأت في بني سعد فأني لي اللحن" (٢)

وكان أبو بكر الصديق يقول: "لأن أقرأ فأسقط أحب إلى من أن أقر فألحن"(٣)

وكانت قريش أجود العرب انتقاء بالأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا وأبينها عما في النفس (٤)

وقال في ذلك ابن فارس: وكانت قريش مع فصاحتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب. (٥)

1- الخصائص لابن جني ٨/٢-تحقيق:محمد عبد الحليم النمار، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٢ - إرشاد الأريب لمعرفة الأديب ٨٢/١ (روى عن عبد الله بن مسعود- — ياقوت، مطبوعات دار المأمون بمصر ١٣٥٥

2- المزهر للسيوطي ٣٩٧/٢ طبعة ثانية دار إحياء الكتب العربية القاهرة

3- إرشاد الأريب ١٧/١ -الأضداد لابن الأنباري ص:٢٤٤ طبع حكومة الكويت ١٩٦٠

4- فى أصول النحو،ص:٢١.سعيد الأفغاني، المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م

5- الصاحبي، ص: ٢٣ . ابن فارس، المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٢٨ هـ

ومرد الأمر كله هو الوثوق من سلامة لغة المحتج به، وعدم تطرق الفساد إليها، وهذا هو الضابط في التضييق الزماني والمكاني للكلام الذى يحتج به[1]

ما يحتج به:

والكلام الذى يحتج به ينقسم إلى ثلاثة أقسام، القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام العرب.

القسم الأول –القرآن الكريم- هو النص الصحيح المجمع على الاحتجاج به في اللغة والنحو والصرف وعلوم البلاغة، ولا يوجد أي خلاف في ذلك بل قراءته الشاذة التي منع القراء قراءتها في التلاوة يحتج بها في اللغة والنحو [2] إذ هي على كل حال أقوى سندا وأصح نقلا من كل ما احتج به العلماء من الكلام العربي غير القرآن[3]

وهنا أمر ينبغي التنبيه إليه بشيء من التفصيل فالحق أن موقف النحاة من النصوص العربية حين وضعهم القواعد فيه خلل واضطراب من الناحية المنهجية، وأن موقف القراء علميا ومنطقيا ومنهجيا سديد متسق

وأما أثر الحديث الشريف فكان من المنهج الحق بالبداهة أن يتقدم الحديث الشريف سائر كلام العرب من نثر وشعر في باب الاحتجاج في اللغة وقواعد الإعراب، إذ لا تعهد العربية في تاريخها بعد القرآن بيان أبلغ من الكلام النبوي ولا أروع تأثيرا ولا أفعل في النفس ولا أصح لفظا ولا أقوم معنى ويكن ذلك لم يقع كما ينبغي لانصراف اللغويين والنحويين إلى ثقافة ما يزودهم به رواة الأشعار خاصة، انصرافا استغرق جهودهم، فلم يبق فيهم لرواية الحديث ودرايته بقية، فتعللوا لعدم احتجاجهم بالحديث بعلل، كلها وارد بصورة أقوى على ما احتجوا به هم أنفسهم من شعر ونثر.

ومع إجماع اللغويين والنحاة بصفة عامة على أن النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب قاطبة، وأن الحديث لا يتقدمه شيء في باب الاحتجاج إذا ثبت لهم أنه لفظ النبي نفسه، انقسموا فيما يروى من الأحاديث إلى فريقين.

1- في أصول النحو، ص: ٢٥

2- الاقتراح للسيوطى، ص: ١٧،مطبعة دائرة المعارف بحيدرآباد ١٣١٠هـ

3- في أصول النحو، ص:٢٩

فريق غلب على ظنه أنها لفظه عليه السلام فأجاز الاحتجاج به.

وفريق غلب على ظنه أنها مروية بالمعنى لا باللفظ، ولذا لا يجيز الاحتجاج بها نعرض أولا موقف الفريقين ثم نختم قولنا بما هو أقرب إلى الحق مستندا إلى الحقائق التاريخية ووقائع الحال.

فريق المانعين:

قال أبو حيان: "إنما ترك العلماء ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن في إثبات القواعد الكلية، وإنما كان ذلك لأمرين.

أحدهما: أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه صلى الله عليه وسلم فتنقل بألفاظ مختلفة لحديث:

"زوجتكها بما معك من القرآن"

وفي رواية أخرى: ملكتكها بما معك من القرآن.

وفي الثالثة: خذها بما معك من القرآن

وفي الرابعة: أمكناكها بما معك من القرآن

فنعلم يقينا أنه صلى الله عليه وسلم: لم يقل جميع هذه الألفاظ ، بل لا نجزم بأنه قال بعضها؛ إذ يحتمل أنه قال لفظا آخر مرادفا لهذه الألفاظ فأتت الرواة بالمرادف ولم تأت بلفظه صلى الله عليه وسلم بالضبط؛ إذ المعنى هو المطلوب، ولاسيما مع تقادم السماع وعدم الضبط بالكتابة والاتكال على الحفظ، والضابط منهم من ضبط المعنى وأماضبط اللفظ فبعيد جدا، ولاسيما في الأحاديث الطوال... ومن نظر في الحديث أدنى نظر عَلِمَ عِلْم اليقين أنهم إنما يروون بالمعنى.

ملحوظة: هذه الشبهات التي أشار إليها أبو حيان في شان الحديث النبوي هي بدرجة أعلى منها تقع في ثبوت الشعر العربي ونثره ،فقد وجد فيها الترادف، ووجد فيها عدم الضبط بالكتابة، واتكل فيها على الحفظ فمن ثم هذه الشبهات مفندة بأسبابها بأنفسها.

ونضيف إلى هذا أن أسباب الرفض ينبغي أن تكون طبق معايير اللغة، مثل قولهم أن هذه الكلمة لم ترد في اللغة وهي تخالف أسس اللغة، وهذه القاعدة جاءت خلافا لقواعد اللغة وليست لها نظير في اللغة وأن هذا الأسلوب غير وارد في اللغة وما إلى ذلك.

وأما قولهم : فأتت الرواة بالمرادف فأقول في الرد، ألم يقع الترادف في اللغة؟ بل هو ورد فيها، واعترف به اللغويون، وعدوه من ضمن وسائل نمو اللغة.

وقولهم: عدم ضبط الكلمة هذا القول ليس له شان إذ اللغة كلها كانت غير مضبوطة في العصر الجاهلي وفي العصر الإسلامي كذلك، وكلنا يعلم جيدا أن هذا الأمر تحقق في القرن الثاني الهجري بيد الخليل بن أحمد الفراهيدي.

وقولهم بنسبة الاتكال على الحفظ، فهذه الظاهرة كانت عامة ومعروفة لدى اللغويين والنحاة والأدباء

ويجيب المجوزون عن هذا الاعتراض بقولهم: إن الأصل الرواية باللفظ، ومعنى تجويز الرواية بالمعنى فذلك احتمال عقلي فحسب لا يقين بالوقوع، وعلى فرض وقوعه فالمغير لفظا بلفظ في معناه عربي مطبوع ومحتج بكلامه في اللغة، ونحن نعرف مقدار تحري علماء الحديث وضبطهم لألفاظه، حتى إذا شك راو أو عربي بين (على وجوههم)

و(على مناخرهم) [1] أثبتوا شكه ودونوه مبالغة في التحري والدقة، هذا إلى جانب أن كثيرا من الرواة صحابة وتابعين دونوا الأحاديث من عهد النبي صلى الله عليه وسلم مثل عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وهذا عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ) يكتب إلى الآفاق أن: انظروا ما كان من حديث رسول الله أو سنته فاكتبوه، ثم كان الزهري (-١٢٤هـ) وابن أبي عروة (١٥٦هـ) والربيع بن صبيح (-١٦٠هـ) ممن دونا الحديث كتابة، ثم شاع التدوين في الطبقات التي بعد هؤلاء، وهذا كان في غلبة الظن بأن الذي في مدونات الطبقة الأولى لفظ النبي نفسه، فإن كان هناك ابدال لفظ بمرادفه فإنما أبدله عربي فصيح يحتج به.

وإن وقع بعد ذلك شك في بعض الروايات من غلط أو تصحيف فترر يسير لا يقاس أبدا إلى أمثاله في الشعر وكلام العرب، فكثير من الأشعار نفسها رويت بروايات مختلفة، وبعضها موضوع، وربما كان ما فطنوا إلى وضعه منه أقل من القليل، وجاز عليهم أكثر الموضوع؛ إذ كان واضعه قدأحسن المحاكاة، قال الخليل بن أحمد:

1- شرح الأربعين النووية، ص: ٢٤٧ : الشيخ محمد بن صالح العثيمين موافق للمطبوع مكتبة مشكاة الإسلامية-علوم الحديث ومصطلحه، ص: ٧٧-٧٩

"إن التحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللبس والتنعيت"[1]

وأنتم تحتجون بهذا الشعر والنثر على حجره وبحره، هذا من حيث المتن، وأما من حيث السند فقد عرف المحتجزون والمانعون ما في روايات الحديث من ضبط ودقة وتحر لا يتحلى ببعضه كل ما يحتج به النحاة واللغويون من كلام العرب؛ حتى قال الأعمش: "كان هذا العلم عند أقوام كان أحدهم: لأن يخر من السماء أحب إليه من أن يزيد فيه واوا أو الفا أو دالا" [2]

المانع الثاني: هو وقوع اللحن في بعض الأحاديث المروية وهو شيء – إن وقع – قليل جدا لا يبنى عليه ضيم . ورده يكون كما يلي:

نعلم جيدا أنهم قد تشددوا في أخذ الناس بضبط ألفاظ الحديث، حتى إذا لحن فيه شاد أو عالي أقاموا عليه التنكير، بل إن بعضهم ليدخله النار بسببه، وكان هذا التشديد تقليدا متوارثا في حملة الحديث حتى يومنا هذا.

ويقول السيد جمال الدين القاسمي (١٣٣٢هـ) بهذا الصدد: "من قرأ حديث رسول الله وهو يعلم أنه يلحن فيه سواء أكان في أدائه أم في إعرابه، يدخل في هذا الوعيد الشديد يعني قوله صلى الله عليه وسلم: "من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" لأنه يلحنه كاذب عليه[3]

الأمر الثاني: أنه وقع اللحن كثيرا فيما روى من الحديث، لأن كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع، ولا يعلمون لسان العرب بصناعة النحو فوقع اللحن في كلامهم وهم لا يعلمون ذلك [4]

هذا الاحتمال ضئيل في مجالنا وذلك لأسباب عديدة. منها أن الناس اهتموا بالحديث اهتماما بالغا، ووضعوا لروايتة القيود الصارمة ووصفوا سيرته ومن كان يتوفر فيه قيودهم كانوا يقبلون روايته، واشتهرت هذه القيود والأوصاف في الفنون

1- الصاجي، ص: ٣٠– فى أصول النحو، ص: ٥١-٥٢

2- الكفاية فى علم الرواية، ص: ١٧٨ ،الخطيب البغدادى ،مراجعة :أبو عبد الله السورقى ، إبراهيم حمدى المدنى . دار النشر الكتبة العلمية ،المدينة المنورة

3- قواعد التحديث من فن مصطلح الحديث، ص: ١٥٦ دمشق مطبعة ابن زيدون (١٣٥٣-١٩٣٥م)

4- في أصول النحو، ص: ٤٨

العربية بفن أسماء الرجال. وهو شيء يتفوق فيه المسلمون من الآخرين، واعترف بذلك غير المسلمين.

وأتى ابن مالك (٦٧٢هـ) من النحاة فأكثر الاستشهاد بالحديث في إثبات القواعد الكلية في لسان العرب ولاسيما في كتاب (التسهيل) إكثارا ضاق به أبو حيان شارح (التسهيل) غير مرة، حتى غلا في بعض هذه المرات فقال (والمصنف قد أكثر من الاستدلال بما ورد في الأثر متعقبا بزعمه على النحويين وما أمعن النظر في ذلك ولا صحب من له التمييز[١]

ثم جاء ابن هشام (٧٦١هـ) تلميذ أبي حيان ونقيضه في مذهبه إزاء الاستشهاد بالحديث، فكان يكثر من الاحتجاج به في كتبه ما وجد إلى ذلك سبيلا كغيره من النحاة، حتى لفت نظرالذين عنوا بترجمته فنصوا على أنه "كان كثير المخالطة لشيخه أبي حيان، شديد الانحراف عنه" [٢]

وأما ما ادعاه أبو حيان من أن المتأخرين من نحاة الأقاليم تابعوا المتقدمين في عدم الاحتجاج بالحديث فمردود بأن كتب النحاة من أندلسيين وغيرهم مملوءة بالاستشهاد بالحديث، منهم الشريف الصقلي والشريف الغرناطي في شرحيهما لكتاب سيبويه، وابن الحاج في شرح المقرب، وابن الخبازفي شرح الفية ابن معطى على الشلوبين في كثير من مسائله وكذلك استشهد بالحديث السيرافي والصفار في شرحيهما لكتاب سيبويه.[٣]

الأحاديث التي لا ينبغي الاختلاف حول الاحتجاج بها في اللغة والقواعد ستة أنواع.

أولها: ما يروى لقصد الاستدلال على فصاحته عليه السلام كقوله (حمي الوطيس) وقوله (مات حتف أنفه) وقوله (الظلم ظلمات يوم القيامة)

ثانيها: ما يروى من الأقوال التي كان يتعبد بها أو أمر لتعبد بها كألفاظ القنوت والتحيات وكثير من الأذكار والأدعية التي كان يدعو بها في أوقات خاصة مثل الصباح والمساء.

1- الاقتراح، ص:١٩-٢١

2- بغية الوعاة، ص:٦٩/٢ جلال الدين السيوطى ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ-١٣٦٥م /مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاؤه .

3- فى أصول النحو،ص: ٥٤

ثالثها: الأحاديث التي كان يخاطب بها كل قوم من العرب بلغتهم.

رابعها: الأحاديث التي تعددت رواتها واتحدت ألفاظها، فإن اتحاد الألفاظ مع تعدد الطرق دليل على أن الرواة لم يتصرفوا في ألفاظها.

خامسها: الأحاديث التي دونها من نشأ في بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة، كمالك بن أنس، والإمام الشافعي.

سادسها: ما عرف من حال رواياتهم أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى مثل ابن سيرين، والقاسم بن محمد، ورجاء بن حيوة، وعلي بن المدني.

ولنا أن نذكر هنا قصة تعلم سيبويه العربية وفيها أنه ذات يوم ذهب إلى شيخه حماد البصري ليتلقى منه الحديث ويستملى منه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس من أصحابي أحد إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء".

ولكن سيبويه أخطأ لقَدَر قَدَّرهُ الله له وهو يقرأ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ليقرأ الحديث على هذا النحو: "ليس من أصحابي أحد إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبو الدرداء".

فصاح به شيخه حماد: لحنت يا سيبويه، إنما هذا استثناء، فقال سيبويه: والله لأطلبن علما لا يلحنني معه أحد، ثم مضى ولزم الخليل بن أحمد الفراهيدي وغيره، ومن هنا كانت البداية الحقيقية للغلام الصغير سيبويه ليصبح بعدها إمام المتقدمين والمتأخرين في النحو وإمام النحاة.

بدا لنا من هذه القصة أن اهتمام العلماء بمتن الحديث كان شديدا جدا، وهم ما كانوا يسمحون لأحد أن يخطىء في حضورهم وفي مجلسهم في ذلك.

ومن الأحاديث التي لا ينبغي الاختلاف في عدم الاحتجاج بها، وهي الأحاديث التي لم تدون في الصدر الأول وإنما تروى في بعض كتب المتأخرين...

والحديث الذي يصح أن تختلف الأنظار في الاستشهاد بألفاظه، هو الحديث الذي دون في الصدر الأول و لم يكن من الأنواع الستة المبينة وهو على نوعين:

حديث يرد لفظه على وجه واحد، وحديث اختلفت الرواية في بعض ألفاظه:

والحديث الوارد على وجه واحد فالظاهر صحة الاحتجاج به، نظرا إلى أن الأصل الرواية باللفظ، وإلى تشديدهم في الرواية بالمعنى.

وأما الأحاديث التي اختلفت فيها الرواية، فيجوزالاستشهاد بما جاء في رواية مشهورة لم يغمزها أحد من المتحدثين بأنها وَهْمٌ من الراوي ومثاله كلمة (ممثلا) في

قول النبي صلى الله عليه وسلم (قام النبي صلى الله عليه وسلم ممثلا أي منتصبا). والمعروف في كلام العرب إنما هو: (مائل).

وما يجيء في رواية شاذة أو في رواية يقول فيها بعض المتحدثين: إنها غلط من الراوي نحو فاعوس البحر وفي بقية الروايات "قاعوس البحر" وفاعوس البحر غير معروفة في كلام العرب.[1]

وخلاصة القول أننا نرى الاستشهاد بألفاظ مايروى في كتب الحديث المدونة في الصدر الأول وإن اختلفت فيها الرواية، ولا يستثنى إلا ألألفاظ التي تجيء في رواية شاذة أو يغمزها بعض المتحدثين بالغلط والتصحيف غمزا لا مرد له.

ويؤيد هذا الرأي سلوك جمهور اللغويين وطائفة عظيمة من النحويين الذين استشهدوا بالألفاظ الواردة في الحديث ولوعلى بعض رواياته.[2]

وأغلب الظن بل أقول من اليقين أن من لم يستشهد بالحديث من المتقدمين لو تأخر به الزمن إلى العهد الذي راجت فيه بين الناس ثمرات علماء الحديث من رواية ودراية لقصروا احتجاجهم عليه بعد القرآن، ولما التفتوا قط إلى الأشعار والأخبار التي لا تلبث أن يطوقها الشك إذا وزنت بموازين فن الحديث العلمية.

تبين لنا مما سبق، ومن كثير من المرويات التى لم نذكرها أن أثر الحديث النبوى الشريف فى تراكيب العربية يتضح فى المحافظة على معظم هذه التراكيب من الضياع أو النسيان، وأن دراسة بعض هذه التراكيب قد يساعد فى توجيه إعراب، أوتصحيح رواية، أو حل مشكلة نحوية ثار الخلاف حولها.

والأثر الواضح الذى لايعدله أثرآخر هو تحول سيبويه إلى دراسة النحو ولولا هذا التحول ماكان عندنا نحو،وماكان عندنا سيبويه.

٧- أثر الحديث فى أساليب العربية وبلاغتها:

اتضح لنا مما سبق من الكلام أن الحديث النبوى الشريف قد توافرت له كل أسباب جودة الكلام، وعرفنا كذلك أن فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن مقصورة على جودة الأسلوب، وعمق المعنى ؛ بل جاوزت ذلك إلى الأداء، فلقد

---

1 - المرجع السابق، ص: ٥٨ نقلا عن مجلة مجمع اللغة العربية ٣/٢٠٨-٢١٠

2 - المرجع السابق، ايضاً

كان إلقاؤه الحديث بالغا درجة الكمال، وماكان يتكلم فى غير حاجة، وإذا تكلم لم يسرد سردا، بل فصل وتمهل وأبان ورتل .

روى البخارى والترمذى عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه [1]

ووصف الدكتورمحمد الصباغ أسلوب الحديث فقال: "يمتاز بالجزالة والوضوح ، والدقة فى الوصف والتعبير، والإبداع فى التشبيه والتصوير، والموسيقى الرائعة فى الألفاظ، والإيجاز فى القول، ومجانبة التكلف" [2]

ومن خصائصه كذلك بعده عن التكلف مع تجديده فى أساليب النثر المألوفة. فلا يجد القارئ التكلف فى سجع، ولا التصنع السمج فى صورة، بل تطالعه سجية مرسلة، وأسلوب حر من كل قيد خال من زخرف مستكره.

ومن خصائص أسلوبه أيضا القدرة على التصوير[3]

وبناءً على هذه الخصائص والمزايا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوتيت جوامع الكلم" والمراد بذلك أنه عليه السلام أوتى الكلم الجوامع للمعانى .

وكثير مما فى الحديث من معان جديدة فاجأت الدنيا كلها و لم تفاجئ العرب وحدهم. فالدعوة إلى المساواة دون تمييز مثلا معنى جديد نأخذه من قوله عليه السلام: " أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس

1- صحيح البخارى، ص:١/٢٥ محمد بن إسماعيل البخارى.تحقيق محمود النواوى . و أبى الفضل إبراهيم و محمد خفاجى_مطبعة الفجالة الجديدة بمصر سنة ١٣٧٦ هـ - جامع الترمذى، ص:٤/٣٠٤ _محمد بن عيسى الترمذى _مطبوعة مع تحفة الأحوذى فى الهند ١٣٤٣ هـ- رياض الصالحين، ص:٣٠٨ ،يحيى بن شرف النووى ،تعليق مصطفى عمارة دار إحياء الكتب العربية بمصر .- التصوير الفنى فى الحديث النبوى، ص:٢٢_٢٣

2- التصوير الفنى فى الحديث النبوى، ص: ٢٤

3- المرجع السابق، ص: ٢٤

لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى [1] معنى هذا الحديث يلم بالحقيقة من كل أطرافها، فلا يند منه جانب، وهذا ما نريد من كلمة الإحكام.

وعلى طراز ما سبق نرى أن معاني الحديث تغوص في أعماق النفس الإنسانية وتؤثر فيها تأثيراكبيرا، وهي لم تقيد بظرف الزمان أو بظرف المكان و لم ينظر فيها إلى العرب وحدهم، ولا إلى الناس في زمن النبوة فحسب، ولا إلى جزيرة العرب وحدها، ولا إلى طبقة دون طبقة، وإنما كانت هذه المعاني تنظر إلى الإنسان من حيث هو إنسان.

و هذه المعاني منقسمة إلى قسمين .

القسم الأول: هومالم يكن لأحد فيه قول سابق، وهو أن له ألفاظا تتضمن من المعنى مالا تتضمنه أخواتها مما يجوز أن يستعمل في مكانها, فمن ذلك ما يأتي على حكم الحقيقة.

ومن أمثلة ذلك قوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين على المجاز : "الآن حمى الوطيس"

وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله صلى الله عليه و سلم . ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه فقلنا : (استعرت الحرب) لما كان مؤديا من المعنى ما يؤديه "حمى الوطيس" والفرق بينهما أن الوطيس هو التنور، وهو موطن الوقود ومجتمع النار، وذلك يخيل إلى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقدها، وهذا لا يوجد في قولنا (استعرت الحرب) أو ما جرى مجراه .

و كذلك قال رسول الله عليه و سلم : " بعثت في نفس الساعة " فقوله (نفس الساعة) من العبارة العجيبة التي لا يقوم غيرها مقامها لأن المراد بذلك أنه بعث والساعة قريبة منه، لكن قربها منه لا يدل على ما دل عليه النفس، وذلك أن النفس يدل على أن الساعة منه بحيث يحس بها كما يحس الإنسان بنفس من هو إلى جانبه .

1- الحديث النبوي، ص:١٢٦ ، محمد بن لطفي الصباغ،المكتب الإسلامي بيروت ،الطبعة الثالثة ١٣٩٧-١٩٧٧ -التصوير الفني في الحديث النبوي، ص: ٢٣

القسم الثانى: المراد به الإيجاز الذى يستدل به بالألفاظ القليلة على المعانى الكثيرة، أى: إن ألفاظه صلوات الله عليه جامعة للمعانى المقصودة على إيجازها و اختصارها، وجل كلامه جار هذا المجرى [1]

وهذا الجانب من الحديث اهتم به أدباء كبار على مر العصور، ويأتى فى مقدمتهم الجاحظ الذى كان يقارن من حين إلى حين بين قوله عليه السلام وبين أقوال أدباء العرب، ومن نماذج ذلك مقارنته بين قول الرسول صلى الله عليه وسلم " لا تنتطح فيه عنزان "وقول عدى بن حاتم" لا تحبق فيه عناق" أى أمر لا يعبأ به، وثأر لا يدرك . ثم قال : فلم يصر كلامه مثلا وصار كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا" [2]

وتعرض ابن رشيق القيروانى فى مواضع من (العمدة) إلى التنويه بالحديث وحلل قوله صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحرا، إن من الشعر لحكما" وقيل:"لحكمة" فقرن البيان بالسحر فصاحة منه صلى الله، وجعل من الشعر حكما لأن السحر يخيل للإنسان ما لم يكن للطافته وحيلة صاحبه وكذلك البيان يتصور فيه الحق بصورة الباطل والباطل بصورة الحق لرقة معناه ولطف موقعه [3]

وقال كذلك وهويثنى بكلام عام على الحديث وبلاغته : ومن أفضل كلام البشر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض خطبه "فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الممات فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار"

فهذا المعجز الذى لا تكلف فيه ولا مطمع فى الإتيان بمثله [4]

وأدلى بدلوه إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجانى فى وصف معانى الحديث وإيجازه و بيان بديعه فقال فى قوله: "ياأيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس ينام تدخلوا الجنة بسلام "

1- التصوير الفنى فى الحديث النبوى، ص: ٥٨-٥٩

2- البيان والتبيين ص: ١٥/٢

3- العمدة ص:٢٧/١ -ابن رشيق القيروانى ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر .

4- العمدة لابن رشيق،ص:٨/٢

فأنت لا تجد فى جميع ما ذكرت لفظا اجتلب من أجل السجع وترك له ما هو أحق بالمعنى به وأبرّ به وأهدى إلى مذهبه [1]

وحلل كذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم " إيّاكم وخضراء الدمن "

وقال : الشبه مأخوذ للمرأة من النبات كما لايخفى، وكلاهما جسم إلا أنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات وخضرته ولا طعمه ولا رائحته ولا شكله وصورته و لا ما شاكل ذلك، ولا مايسمى طبعا كالحرارة، والبرودة المنسوبتين فى العادة إلى العقاقير وغيرها مما يسخن بدن الحيوان ويبرد بحصوله فيه، ولا شيء من هذا النبات بل القصد شبه عقلى بين المرأة الحسناء فى المنبت السوء، وبين تلك النابتة على الدمنة وهو حسن الظاهر فى رأى العين مع فساد الباطن وطيب الفرع مع خبث الأصل[2]

ويضيف إلى ذلك قائلا: معلوم أن ليس القصد إثبات معنى ظاهر اللفظين ولكن الشبه الحاصل عن مجموعها و ذلك حسن الظاهر مع خبث الأصل[3]

وقارن عبد القاهر بصدد ذلك بين حديث الرسول وكلام الأدباء وبلور الفرق الشاسع بينهما من حيث الأثر والتأثير فى قوة المعنى، ويقول فى ذلك: "وإن أردت اعتبار ذلك فى الفن الذى هو أكرم وأشرف فقابل بين أن تقول: إن الذى يعظ ولا يتعظ يضر نفسه من حيث ينفع غيره، وتقتصر عليه وبين أن تذكر المثل على ما جاء فى الخبر من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "مثل الذى يعلم الخبر ولا يعمل به مثل السراج الذى يضيء للناس ويحرق نفسه[4]

وهناك أمثلة عديدة فى كتابه أسرار البلاغة قام بتحليلها ولا نرى حاجة إلى ذكرجميعها هنا.

وقد وجدنا ابن الأثير من أكثر المتقدمين ضربا للأمثلة فى كتابه المشهور "المثل السائر" وهو يقول: "وكنت جردت من الأخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل فى الاستعمال ومازلت أواظب مطالعته مدة على عشر سنين،

1- أسرار البلاغة، ص: ٩ ، عبد القاهر الجرجانى ، مطبعة المنار

2- المرجع السابق، ص: ٩

3- المرجع السابق، ص: ٢٣٨

4- المرجع السابق، ص: ١٠١

فكنت أهى مطالعته فى كل أسبوع مرة حتى دار على خاطرى وناظرى ما يزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظا لا يشذ عنى منه شيئ " [1]

وكتب ابن الأثير فصلا طويلا تحدث فيه عن الفكرة الآتية . أن قراءة الحديث وتذوقه ومعاناته تكسب المرء قدرة على الكتابة والاستشهاد بالأحاديث. وكذلك فإن حل معانى الحديث واستعارة بعض جملها يرفع من مستوى كتابة الكاتب، وأورد أمثلة كثيرة من إنشائه اقتبسها من الأحاديث .[2]

وهاهى بعض نماذج من دراسته للأحاديث وتعليقه على بعض النكت البلاغية التى نواجهها فى طائفة من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم .

قال ابن الأثير : ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم لأزواجه: "أطولكنّ يدًا أسرعكنّ لحوقا بى" فلما مات صلى الله عليه وسلم جعلن يطاولن بين أيديهن حتى ينظرن أيتهن أطول يدا، ثم كانت زينب أسرعهن لحوقا به، وكانت كثيرة الصدقة فعلمن حينئذ أنه لم يرد الجارحة وإنما أراد الصدقة "[3] وقال كذلك: فما ورد منه قول النبى صلى الله عليه وسلم: " ومن جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين "[4]

فهذا يستخرج منه المعنيان، فالتام منهما يدل على أن من جعل قاضيا فقد عرّض نفسه لخطر عظيم كالذبح بغير سكين .

وأما المقدر فإنه يدل أنه من جعل قاضيا فقد أمر بمفارقة هواه، وهذا لا يدل عليه اللفظ بنفسه. بل يستدل عليه بقرينة أخرى, ولكنها ليست من توابعه. ووجه ذلك أن لفظ الحديث عام يشمل القضاة على الإطلاق، ولا يخلو إما أن يراد به عذاب الآخرة أو عذاب الدنيا، ولا يجوز أن يكون المراد به عذاب الآخرة، لأنه ليس كل قاض معذبا فى الآخرة، بل المعذب منهم قضاة السوء، فوضح بهذا أن المراد بالحديث عذاب الدنيا .

1- المثل السائر، ص:١٩١/١ ابن الأثير، تحقيق دكتور أحمدالحوفى ،ودكتور بدوى طبانة ،دار نهضة مصر للطبع والنشرالفجالة-القاهرة

2- التصوير الفنى فى الحديث النبوى، ص: ٥٥

3- المثل السائر،ص: ٨١/١ ابن الأثير

4- الترمذى، ص:٢٧٥/٢ -سنن أبى داؤد، ص:٤٠٦/٢ ،سليمان بن الأشعث-تحقيق محى الدين عبد الحميد. مطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٤-١٩٣٥

وعلى هذا فلا يخلو إما أن يكون العذاب صورة أو معنى. ولا يجوز أن يكون صورة لأنا نرى الإنسان إذا جعل قاضيا لا يذبح ولايناله شئ من ذلك، فبقى أن يكون المراد به عذابا معنويا، و هو الذبح المجازى غير الحقيقى .

وفحوى ذلك أن نفس الإنسان مركبة على حب هواها فإذا جعل قاضيا فقد أمر بترك ما جبل على حبه من الامتناع على الرشوة، والحكم لصديقه على عدوه، ورفع الحجاب بينه و بين الناس، والجلوس للحكم فى أوقات راحته، وغير ذلك من الأشياء المكروهة التى تشق على النفس وتجد لها ألما مبرحا. والذبح هو قطع الحلقوم، والألم حاصل به، وهو كالذبح الحقيقى بل أشدّ منه لأن ألم الذبح الحقيقى يكون لحظة واحدة ثم ينقضى ويزول، وألم قطع النفس عن هواها يدوم ولاينقضى وهو أشدّ العذاب . قال الله تعالى :﴿ **وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ**﴾ (سبأ:٥٤) وقال فى نعيم أهل الجنة:﴿**وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (الزخرف:٧١)

وكثيرا ما رأينا وسمعنا من حمله حب الشيء على اتلاف نفسه فى طلبه وركوب الأهوال من أجله، فإذا امتنع عنه مع حبه إياه فقد ذبح نفسه أى قطعها عنه كما يقطع الذابح حلق الذبيحة .[1]

ويقول ابن الأثير فى مبحث الإيجاز : وقد ورد فى الأخبار النبوية من هذا الضرب شيء كثير وسأورد منه أمثلة يسيرة فمن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم: " الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات "

وهذا الحديث من أجمع الأحاديث للمعانى الكثيرة، وذاك أنه يشتمل على جلّ الأحكام الشرعية فإن الحلال والحرام إما أن يكون الحكم فيهما بينا لا خلاف فيه بين العلماء ، وإما أن يكون خافيا تتجاذبه وجوه التأويلات فكل منهم يذهب فيه مذهبا .

وأحسن من هذا كله ما ورد عنه صلى الله عليه و سلم فى حديث مطول يتضمن سؤال جبريل عليه السلام فقال من جملته: ما الإحسان قال: " أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك "

فقوله :"تعبد الله كأنك تراه" من جوامع الكلم لأنه ينوب مناب كلام كثير كأنه قال: تعبد الله مخلصا فى نيتك، واقفا عند أدب الطاعة من الخضوع والخشوع،

---

[1]- المثل السائر، ص:١/ ٩٣

آخذا أهبة الحذر وأشباه ذلك، لأن العبد إذا خدم مولاه ناظرا إليه استقصى فى آداب الخدمة بكل ما يجد إليه السبيل وما ينتهى إليه الطوق .

ويقول أيضا: ومما أطربنى من ذلك حديث الحديبية وهو أنه جاء بديل بن ورقاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له: إنى تركت كعب بن لؤى معهم العوذ المطافيل- المطافيل جمع مطفل، والمطفل ذات الطفل، يقال: طفلنا إبلنا تطفيلا إذا كان معها أولادها فرفقنا بها فى السير. هذا هو الأصل، وقد أورد ابن الأثير قطعة من الحديث فيها (العذ المطافيل) فى باب الكناية والتعرض- [1] وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : "إن قريشا قد نهكتهم الحرب، فإن شاءوا ماددناهم مدة ويدعوا بينى وبين الناس، فإن أظهر عليهم وأحبوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس، وإلا كانوا قد جموا، وإن أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنّهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى هذه ولينفذنّ الله أمره "

وهذا الحديث من جوامع الكلم وهو من الفصاحة والبلاغة على غاية لا ينتهى إليها وصف الواصف [2]

وإذا انتقلنا إلى المحدثين نرى فيهم مصطفى صادق الرافعى صاحب "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" وصاحب "وحى القلم" ، والأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب"وحى الرسالة" والأستاذ عباس محمود العقاد صاحب "عبقرية محمد" وغيرهم من الآخرين. حاول كل واحد من هؤلاء أن يذكر محاسن حديث النبى صلى الله عليه وسلم. ونذكر على سبيل المثال بعض النماذج من تحليل الأستاذ مصطفى صادق الرافعى.

قال الرافعى فى مدح ألفاظ النبوة: " ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهى إن لم تكن من الوحى ولكنها جاءت من سبيله وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هى من دليله، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول حتى ليس منها كلمة مفضولة، وكأنما هى فى اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم .[3]

1- المرجع السابق المثل السائر ، ص:٣/٦٤-٦٥

2- المرجع السابق المثل السائر ، ص:٢/٣٤٠

3- إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ص: ٣١٢

ويصف كلامه فى موضع آخر فيقول: "فإن هذا الكلام النبوى لا يعتريه شيء مما سميناه لك آنفا. بل تجده قصدا محكما متياسرا، يشد بعضه بعضا، وكأنه صورة روحية لأشد خلق الله طبيعة، وأقواهم نفسا، وأصوبهم رأيا، وأبلغهم معنى، وأبعدهم نظرا، وأكرمهم خلقا، وهذا وشبهه لا يتأتى إلا بعناية من الله تأخذ على النفس مذاهبها الطبيعية وتتصرف بشدها على غير ما يبعث عليه الطبع الحديد والخلق الشديد . ويخرجها من كل أمر متكافئة متوازنة "[1]

كان ذلك شيئا من كلامه فى البلاغة النبوية بصفة عامة، وأما حديثه عن الصورة الفنية فى الحديث فمن ذلك أنه أورد الحديث " هدنة على دخن" فقال: " والهدنة الصلح والموادعة. والدخن تغيير الطعام إذا أصابه الدخان فى حال طبخه فأفسد طعمه وهذه العبارة لا يعد لها كلام فى معناها، فإن فيها لونا من التصوير البيانى لو أذيبت له اللغة كلها ما وفت به، وذلك أن الصلح إنما يكون موادعة ولينا وانصرافا عن الحرب وكفّا عن الأذى، وهذه كلها من عواطف القلوب الرحيمة، فإذا بنى الصلح على فساد وكان لعلة من العلل غلب ذلك على القلوب فأفسدها حتى لايستروح غيره من أفعالها، كما يغلب الدخن على الطعام فلا يجد آكله إلا رائحة هذا الدخان، والطعام بعد ذلك مشوب مفسد .

فهذا فى تصوير معنى الفساد الذى تنطوى عليه القلوب الواغرة، وثم لون آخر فى صفة هذا المعنى، وهواللون المظلم الذى تنصبغ به النية (السوداء) وقدأظهرته فى تصوير الكلام لفظة (الدخن).

ثم معنى ثالث وهوالنكتة التى من أجلها اختيرت هذه اللفظة بعينها، وكانت سر البيان فى العبارة كلها، وبها فضلت كل عبارة تكون فى هذا المعنى، وذلك أن الصلح لا يكون إلا أن تطفأ الحرب، فهذه حرب قد طفئت نارها بما سوف يكون فيها نار أخرى كما يلقى الحطب الرطب على النار تخبو به قليلا ثم يستوقد فيستعر فإذا هى نار تلظى وما كان فوقه الدخان فإن النار ولاجرم من تحته .

وهذا كله تصوير لدقائق المعنى كما ترى حتى ليس فى الهدنة التى تلك صفتها معنى من المعانى يمكن أن يتصور فى العقل إلا وجدت اللون البيانى يصوره فى تلك اللفظة لفظة " الدخن"[2]

---

[1]- المرجع السابق، ص: ٣٢٥ - التصوير الفنى فى الحديث النبوى، ص: ٦٨

[2]- المرجع السابق، ص: ٣٢٨-٣٢٩ -التصوير الفنى فى الحديث النبوى، ص:٦٩-٧٠.

وتناول حديث السفينة وقال فى شرحه: وقفت عند قوله صلى الله عليه وسلم " إن قوما ركبوا فى سفينة -" فكان لهذا الحديث فى نفسى كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معناالبحر ويسمون أنفسهم بالمجددين وينتحلون ضروبا من الأوصاف. كحرية الفكر والغيرة والإصلاح، ولايزال أحدهم ينقرموضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا وآدابنا بفأسه أى بقلمه زاعما أنه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه ما يشاء ويتولاه كيف أراد موجها لحماقته وجوها من المعاذير والحجج من المدنية والفلسفة، جاهلا أن القانون فى السفينة إنما هو قانون المعاقبة دون غيرها، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه كما تحكم على الأعمال الأخرى . بل قبل وقوعه، والعقاب لا يكون الجرم يقترفه المجرم- بل على الشروع فيه، بل على توجه النية إليه، فلا حرية هنا فى عمل يفسد خشب السفينة أو يمسه من قرب أو بعد مادامت ملجّجة فى بحرها، سائرة إلى غايتها. إذ كلمة (الخرق) لا تحمل فى السفينة معناها الأرضى، وهناك لفظة (أصغر خرق) ليس لها إلا معنى واحد وهو (أوسع قبر).

ففكر فى أعظم فلاسفة الدنيا مهما يكن من حريته وانطلاقه فهو ههنا محدود على رغم أنفه بحدود من الخشب والحديد تفسيرها فى لغة البحر حدود الحياة والمصلحة . وكما أن لفظة (الخرق) يكون من معانيها فى البحر القبر والغرق والهلاك، فكلمة (الفلسفة) يكون من بعض معانيها فى الاجتماع الحماقة والغفلة والبلاهة، وكلمة (الحرية) يكون من معانيها الجناية والزيغ والفساد.

وعلى هذا القياس اللغوى فالقلم فى أيدى بعض الكتاب من معانيه الفأس، والكاتب من معانيه المخرب والكتابة من معانيها الخيانة [1]

أحسن مصطفى صادق الرافعى القول فى شأن بلاغة حديث النبى صلى الله عليه وسلم عندما قال: ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهى إن لم تكن من الوحى ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هى من دليله، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول حتى ليس فيها كلمة مفضولة، وكأنهما هى فى اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما فى سموها وإجادتها مظهر من خواطره صلى الله عليه وسلم.

---

[1]- وحى القلم،ص:٣/٧-٨ ،مصطفى صادق الرافعى . الناشر دار الكتاب المصرية . بيروت لبنان ١٤٢١-٢٠٠٠

وهى البلاغة النبوية تعرف الحقيقة فيها كأنها فكر صريح من أفكار الخليقة، وتجيء بالمجاز الغريب فترى من غرابته أنه مجاز فى حقيقة. وهى من البيان فى إيجاز تتردد فيه "عين" البليغ، فتعرفه مع إيجاز القرآن فرعين؛ فمن رآه غير قريب من ذلك الإعجاز فليعلم أنه لم يلحق به هذه " العين" على أنه سواء فى سهولة إطماعه؛ و فى صعوبة امتناعه؛ إن أخذ أبلغ الناس فى ناحيته، لم يأخذ بناصيته، وإن أقدم على غير نظر فيه رجع مبصرا، وإن جرى فى معارضته انتهى مقصرا[1]

٨- الخاتمة :

تبين مما سبق الآثار المتنوعة للحديث النبوى الشريف فى اللغة العربية، آثاره فى ألفاظهاومعانى هذه الألفاظ، وآثاره فى نحوها وتراكيبها، وماكان له من محافظة على هذه التراكيب من الزوال، وآثاره فى بلاغتها وأساليبها، ومافتحه من فنون القول وجوامع الكلم.

وتبين لناعدد العلوم التى ظهرت وعددالعلماء والرواة الذين فكروا وكتبوا ودرسوا وتركوا لنامؤلفات ضخمة ساندت مشوار اللغة العربية فى تاريخها الطويل. ولولا ذلك كله لضاعت العربية، وصارت لغة ميتة مثل اللغات القديمة التى ماتت .

1- إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ص:٢٧٩-٢٨٠

المصادر والمراجع

١. إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي-مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٣٥٨

٢. إرشاد الأريب لمعرفة الأديب (المعروف بمعجم الأدباء) لياقوت ،مطبوعات دار المأمون بمصر ١٣٥٥

٣. أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجانى ، مطبعة المنار،القاهرة

٤. الأضداد لابن الأنباري طبع حكومة الكويت ١٩٦٠

٥. إعجاز القرآن و البلاغة النبوية ،مصطفى صادق الرافعي،الطبعة التاسعة ١٣٩٣-١٩٧٣ الناشر دار الكتاب العربى بيروت لبنان

٦. الاقتراح للسيوطى ،مطبعة دائرة المعارف بحيدرآباد ١٣١٠هـ

٧. الأمالي لأبى على القالي ، المطبعة الأميرية ،(مصر) تصويربيروت بالأوفست .

٨. البحر المحيط ،محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ،الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م عدد الأجزاء / ٨ دار النشر : دار الكتب العلمية –لبنان بيروت

٩. البصائر و الذخائر ، على بن محمد أبو حيان التوحيدى ، مطبعة لجنة التاليف و الترجمة و النشر بمصر ، ١٣٧٣هـ-١٩٥٣م

١٠. بغية الوعاة، جلال الدين السيوطى ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ-١٣٦٥م /مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاؤه

١١. البيان و التبيين .عمروبن بحر الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة بالقاهرة ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م

١٢. تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، الناشر دار الكتاب العربى بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

١٣. التصوير الفنى فى الحديث النبوى ، الدكتورمحمد بن لطفى الصباغ الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م المكتب الإسلامى بيروت[

١٤. التفسير الكبير للرازي [– الطبعة الأولى ١٩٣٨م ، طبع بالمطبعة البهية المصرية .

١٥. تهذيب اللغة.أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى(٢٨٢-٣٧٠)،الطبعة الأولى ١٤٢١-٢٠٠١ ،دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان .

١٦. جامع الترمذى _محمد بن عيسى الترمذى _مطبوعة مع تحفة الأحوذى فى الهند ١٣٤٣هـ

١٧. الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير. عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطى –مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر

١٨. جمهرة اللغة لابن دريد (ت٣٢١) –الطبعةالأولى ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م منشورات محمد على بيضون ،دار الكتاب العلمية ،بيروت لبنان .

١٩. الحديث النبوى ، محمد بن لطفى الصباغ،المكتب الإسلامى بيروت ،الطبعة الثالثة ١٣٩٧-١٩٧٧

٢٠. الخصائص لابن جني ،تحقيق محمد عبد الحليم النجار، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٢

٢١. رياض الصالحين ،يحيى بن شرف النووى ،تعليق مصطفى عمارة دار إحياء الكتب العربية بمصر .

٢٢. سنن أبي داؤد ،سليمان بن الأشعث–تحقيق محى الدين عبد الحميد. مطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٤-١٩٣٥

٢٣. شرح الأربعين النووية: الشيخ محمد بن صالح العثيمين موافق للمطبوع مكتبة مشكاة الإسلامية–علوم الحديث ومصطلحه، ص: ٧٧-٧٩

٢٤. شرح النووى على صحيح مسلم ،. الطبعة الأولى ١٤٢٥-٢٠٠٤ مكتبة الرشد ناشرون– المملكة العربية السعودية– الرياض .

٢٥. الصاحبي –ابن فارس ، المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٢٨ هـ

٢٦. الصحاح للجوهري ،تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، مصر دار الكتاب العربي ١٩٥٦م.

٢٧. صحيح البخارى محمد بن إسماعيل البخارى.تحقيق محمود النواوى . و أبى الفضل إبراهيم و محمد خفاجى_مطبعة الفجالة الجديدة بمصر سنة ١٣٧٦ هـ

٢٨. العمدة –ابن رشيق القيروانى ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر .

٢٩. العين.الخليل بن أحمد الفراهيدي(١٠٠-١٧٥):تحقيق الدكتور مهدى المخزومى، الدكتور إبراهيم السامرائى، الطبعة الأولى مصورة فى إيران–تاريخ النشر: ١٤٠٥ من منشورات دار الهجرة.ايران قم

٣٠. الفائق في غريب الحديث ، الزمخشري ، تحقيق على البجاوى و أبى الفضل إبراهيم – طبع عيسى البابى الحلبى بمصر –دون تاريخ .

٣١. فتح الباري بشرح البخاري - ابن حجر: مطبعة مصطفى البلي الحلبي بمصر ١٣٧٨-١٩٥٩م.

٣٢. فى أصول النحو ، سعيد الأفغاني ، المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م

٣٣. قواعد التحديث من فن مصطلح الحديث دمشق مطبعة ابن زيدون (١٣٥٣-١٩٣٥م

٣٤. الكفاية فى علم الرواية ،الخطيب البغدادى ،مراجعة :أبو عبد الله السورقى ، إبراهيم حمدى المدنى . دار النشر الكتبة العلمية ،المدينة المنورة

٣٥. لسان العرب لابن منظور ـ منشورات محمد على بيضون ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان .

٣٦. اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية، د/ عبد اللطيف الصوفي — دمشق دار طلاس ١٩٨٦ الطبعة الأولى

٣٧. المثل السائر ، ابن الأثير، تحقيق دكتور أحمدالحوفى ،ودكتور بدوى طبانة ،دار نهضة مصر للطبع والنشرالفجالة-القاهرة

٣٨. المحكم و المحيط الأعظم ،—ابن سيده(ت٤٥٨) تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوى ، الطبعة الأولى ١٤٢١-٢٠٠٠ دار الكتب العلمية —بيروت -لبنان

٣٩. المزهر للسيوطي ، طبعة ثانية دار إحياء الكتب العربية القاهرة

٤٠. المعجم العربي نشأته و تطوره. د حسين نصار،دار مصر للطباعة ٣٧شارع كامل صدقى، ١٤٠٨-١٩٨٨

٤١. النهاية في غريب الحديث والأثر. لإبن الأثير: تحقيق طاهر أحمد الزاوى -محمودالطناحي الناشرالمكتبةالعلمية سنة النشر١٣٩٩هـ-١٩٧٩م مكان النشر بيروت وعدد الأجزاء.

٤٢. وحى القلم، مصطفى صادق الرافعى. الناشر دار الكتاب المصرية. بيروت لبنان ١٤٢١-٢٠٠٠